

محمود محمد سليمان

الخيال بين الاحالة والايهام

بقلم محمود محمد سليمان

من طبيعة الفن الشعري ان يزخرف صور الخيال ، ولكن مناط الاجادة في خيال الشاعر الصدق وتفسير الحقيقة تفسيرا مقبولا نحس فيه النصاعة والوضوح ، فاذا اتخذ الخيال سمت المبالغة ابعدنا عن الحقيقة ، وتزايلت الصلة بين التصوير والفكرة التي يوهمنا الشاعر احساسه بها فيفقد تعبيره حرارته ، ويخبو بريقه واثره في النفس ، ويتهاوى الشاعر حين يبدو التزوير في حديثه ، وتصبح صوره التي الف شتاتها كالدمى الجامدة لا حس فيها ولا روح .

ولا يقصد الفن الشعري التعلق بالخيال لذاته ، وانما ليكون معوانا على تصوير الحقيقة وتبيانها ، وان الحقيقة التي يتناولها الشاعر لاعز علينا من تهاويل الخيال ، فاذا احسسنا تعابث الشاعر بالافكار الواضحة في الذهن واستهواه زخرف الخيال عن رعاية الفكرة والمبالغات التي يزدهي بها الشعراء ، فليست في حقيقتها الا ضربا من التزوير ، وتبجحا بالانفعال العاطفي الكاذب لا يثير النفس !

اكان ابو تمام حريا ان يبلغ من نفوسنا ادنى تأثير بهذا البيت :

وتكفل الايتام عن آبائهم — حتى وددنا اننا ايتام

انه لم يفعل اكثر من تلبيس الحقيقة في ثوب من الاحالة الكاذبة ، فالحقيقة اننا لا نود اليتم طمعا في رعاية ينسجها خيال سقيم ، ونحن لا نملك الا السخرية من تصويره الرشاقة بهذه الصورة التي احتفل لها كل الاحتفال وذلك حين يقول :

من الهيف لو ان الخلاخل صيرت — لها وشحا جالت عليها الخلاخل

ومبعث السخرية انه احال الرشاقة بفنه الخيالي الى منظر يثير الاشفاق والمرارة وكيف تعد رشيقة من يجول الخلخال (وهو حلية الساق) على كشحها ؟ اتكون جميلة من يدق خصرها عن ساقها ؟! لا شك ان مثل هذه الاحالات لا تمثل الحقيقة ولا تبين عن جمالها ، بل الاصح انها تمسخها وتشوهها ، فبأي موازين النقد يسوغ للفن ان يقدر هذا التزوير ؟!

وما قصدنا ان نكشف عن سخافة المبالغة والاحالة في التعبير ، فقد يكون ذلك من الوضوح بحيث لا ينبغي ان نزيد فيه ببيان ، وانما قصدنا ان نكشف عن مواطن من التعبير يدق الفرق فيها بين الاحالة الكاذبة وبين الايهام وهو لون رائع من الوان التخيل الادبي .

فاذا كانت الاحالة ضربا من التزوير ، ولونا من الخيال يغرب في تصوير الحقيقة ولا يبلغ من امتاع النفس شيئا فان « الايهام » في الشعر لون فاتن من سحر الخيال فيه صدق التعبير وخلابة التأثير .

وقريب من الاحالة نوع من الخيال المصنوع يبدو فيه التكلف ولا يرمز الى اهتزاز الشعور وهذا اللون الاخير يشترك مع المبالغة او الاحالة في الكذب والتزوير والبعد عن التأثير وذلك مثل قول بشار في الجمال الواعد :

بنت عشر وثلاث قسمت — بين غصن وكثيب وقمر

ومليحة الشاعر الفاتنة لا ملاحة فيها ولا فتنة فالصورة هنا لا تكشف عن احساس بالجمال ، وليس وراء هذا الخيال المحشود جميلة صورت في رشاقة الغصن وامتلاء الكثيب وجمال القمر ، ولا ندعي ان الشاعر هنا يبالغ ، وانما الحق انه يكذب ويتكلف ، والمبالغة والكذب صنوان ، وهل تراك تشعر بأسر الجمال في دمية من حجر البست ثيابا مزخرفة ؟!

ولكننا نشعر حقا بالروعة في هذا التصوير الخيالي عند ابي نواس ، اذ لا نملك الا ان نشعر نحوه بانجذاب وتعاطف يقول :

مقسومة فيه ملاحته — ما بين مجتمع فيه ومفترق
فاذا ما بدا اقتادت محاسنه — قسرا اليه اعنة الحدق

ومصدر الجمال هذا الايهام الذي حيرنا في ملاحة الجميل ، وليكن ما رآه ابو نواس ساحر الطرف او رشيق القوام ، او فاحم الشعر ، او ما شئت من نعوت الجمال وليكن مبعث فتنة الشاعر شيئا معينا من مفاتن الجمال ، ولكنه لم يشأ بفنه الرائع ان يحدد لنا شيئا من الوان الجمال ، بل اوهمنا ان الملاحة قد تجمعت وتفرقت في هذا الموصوف ، فكل ما فيه جميل رائع ، فحيثما قلبت بصرك اخذك نوع من السحر الطاغي حتى لتلوي العنق نحوه مرغما ! واي سحر هذا الذي يجذب الاحداق مراغمة واضطرار كما تجذب الخيل وتلوى بالاعنة ؟!

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولا نقول ان تعبير الشاعر مبالغة فالمبالغة مذهب في التعبير مختلف جد الاختلاف عن هذا الفن الرائع ، وآية ذلك انه لا تلحقك بادرة شك في صدق الشاعر ، ومن اين ياتيه الكذب وقد اطلق الوصف اطلاقا ، واوهمنا بشيوع الحسن في هذا الجميل الغريب ، ونحن نطلق وراء هذا الوصف الخيال يتقفى من فنون الحسن ما شاء له التقصي .

وفي الاحالة يجمع خيال القارىء في شوط بعيد ممتد ولكنه ينتهي الى خيبة امل ويأس يبعثان المرارة والالم بسبب بعد الصلة بين الحقيقة والخيال ، ولا بد ان تكون الصلة قوية بين الحقيقة المصورة والخيال ليحس القارىء بالسعادة والتأثر ولا يتحقق ذلك بالطبع في الاحالة التي تفسح لنا مدى الخيال فاذا ما رجعنا الى الحقيقة التي صدر عنها الخيال شعرنا بعمق الفجوة بين الخيال والحقيقة وتصطدم النفس بالفراغ وتلمس التزوير والكذب فتصاب بنوع من الالم والامتعاض ، وينعكس التأثير المقصود من فن الشاعر وخياله .

اما في الايهام فنحن بنجوة من هذا التأثير العكسي ، اذ اننا نتخيل ما نتخيل مما قدر الشاعر فاذا ما استدرنا الى الحقيقة التي صدر عنها الشاعر وجدناها امس رحما بخياله ، وادنى تعاطفا الى فنه فنشعر بالمتعة والسرور !

ولعل الايهام الذي يطلق المجال للتخيل الفسيح بعيدا عن الكذب والاحالة هو مبعث السحر في قول البارودي يرثي زوجته :

فاذا انتهت فانت اول فكرتي   فاذا اويت فانت آخر زادي

فالشاعر هنا قد اوهمنا بان يذكر زوجته في كل وقت من ساعات الليل والنهار نقول: اوهمنا ولم يعبر لنا صراحة ولو انه فعل لما بلغ من التأثير شيئا وقد وضع الحدود التي ينطلق منها الوهم : اليقظة وبدء المنام وهو لا يفتأ مشغول الخاطر بين هذين الطرفين ، واذا ابتدأ منامه تزود بذكراها ليعيش احلامه الهنيئة على هذه الذكرى! هل اوهمنا الشاعر حقا انه لا يفتأ يذكر زوجته في كل لحظات الليل والنهار-؟!

واكثر ما ترى اسلوب الايهام في شعر الفحول ومن ذلك كثرته في شعر ابن الرومي لانه نمط من التعبير الصادق المؤثر ، ومن اولى من ابن الرومي من الفحول في استخدام الخيال الصادق المؤثر يقول :

ليس فيما كسيت من حلل الحسن ولا في هواي من مستزاد

والايهام هنا واضح فمحبوبته قد كسيت من حلل الحسن لباسا ، لا تتصور فيه زيادة وقد بلغ هواه بها مبلغا لا يتطلع الى ابعد منه ، وتقف متسائلا : ماذا عسى ان يكون هذا الحسن ؟! وماذا عسى ان يكون هوى الشاعر ؟ والى ان تقف على بيان يشفي النفس الحائرة تكون قد قطعت اشواطا بعيدة متنقلا بين مفاتن حسن يشغل به خيالك ، وقد يستبد بك الخيال حتى تمثل لنفسك صورة من الحسن ربما لم تدر في وهم الشاعر نفسه ، ولكن حسب الشاعر ان فتح لك ميدان السعادة واللذة تمرح فيه بخيالك كيفما تشاء وتقف مشفقا على الشاعر : هل انحله الهوى هل اذابه الوجد ؟ اشواقه نعيم وسلام ؟ ام زفراته جحيم وآلام ؟

يقول المازني في حصاد الهشيم شارحا فكرة الايهام في البيت السابق :

ليس بالشاعر حاجة الى ان يسرد لنا اوصاف الجميل، وان يذكر لنا ما لون عينيه وكيف حمرة خده ، ونضوج صدره واعتدال قوامه بل يكفينا ان يقول مثل هذا البيت لتعلم اننا هنا نقرا عن جمال تخيله وفق هوانا ، ولا نحتاج الى صورة قد تكون اقل مما تصورناه فيخيب املنا .

ويفتح علينا هذا الكلام فرقا آخر بين الاحالة والايهام في الشعر ، فالذين يتخذون الاحالة اسلوبا في التعبير يتعلقون بالاوصاف الحسية عادة ليضخموها او يولدوا منها صورا كاذبة تبعث السخرية والابتسام . هذا ابو العلاء المعري يركب متن الشطط والغلو حين يزعم ان سهيلا لحمرته الواضحة قد ضرجته بالدم سيوف الاعادي وان فذ بكت له الشعريان رحمة وشفقة فيقول :

وسهيل كوجنة الحب (1) في اللون وقلب المحب في الخفقان
ضرجته دما سيوف الاعادي فبكت رحمة له الشعريان

والاحالة قد انست الشاعر التناسق بين البيت وقرينه فسهيل في حمرته كان كوجنة الحبيب في اللون فكيف تخضب بالدم من سيوف الاعادي ؟! اي دم واي سيوف ؟! وكيف يسوغ في العقل ان يطعن النجم بالسيوف ؟! اليس الخيال الذي تواضع عليه الناس ظلا للحقيقة ؟ اليس رمزا لاحساس وكاشفا عن فكرة ؟ فاي فكرة واي احساس وراء هذا الكذب ؟!

ليس الخيال مهارة لفظية او صفقة عقلية انما هو في مزيته الفنية هتاف الشعور وظل العاطفة .

ولم ينقص شاعرا كابن الرومي شيء من ادوات المبالغة التي يعتمد عليه كثير من الشعراء حين قال في وصف وحيد المغنية :

اهي شيء لا تسام العين منه   ام لها كل ساعة تجديد

لانه بطريقة الايهام التي المحنا اليها ـ قد فسح مجال التخيل ، حتى اننا لنقف بالتخيل عند المثل الاعلى للجمال ، ولم يتورط الشاعر في تحديد مفاتن الجمال فيجعل العيون نرجسا عتما ، والشعر ليلا فاحما ، والوجه دينارا واطراف الاصابع صبغة الشعراء وطريقتهم التي اعتادوها في التعبير ، وانما اطلق القول اطلاقا في فتنة الجمال ، ودل هذا على صدق الشاعر وهو يتحدث عن اعجاب بالجمال البارع فلا طريقة التشبيهات التقليدية ، ولا طريق ما فوق هذه التشبيهات من المبالغات الممقوتة ـ بمغن شيئا في الدلالة على الصدق .

ومما زاد تعبير ابن الرومي براعة استعماله اسلوب الاستفهام مفتاحا لشعوره المتعجب المسحور بهذا الحسن الطاغي فاسلوب الخبر « هي شيء لا تسام العين منه ولها

كل ساعة تجديد » يحقق الايهام المقصود في التعبير ، ولكننا بعد في حاجة الى الاستفهام الذي يبعد الشاعر عن فطنة الادعاء وعلى هذا النمط من التعبير بطريقة الايهام يقول ايضا في مغنيته :

ذات وجه كانما قيل كن فردا بديعا بلا نظير فكانا
ومتى ما سمعت منها فشدو   يطرد الهم عنك والاحزانا
هي حلمي اذا رقدت وهمي   وسروي ومنيتي يقظانا

وواضح ان هذا التعبير بعيد عن اسلوب المبالغة ، ولا يمكن ان يلتبس بها ، بدليل انك لا تستطيع ان تعقب على الشاعر بالكذب ، ولا تلمح في حديثه شارة التزوير .

*

وقد استعمل القرآن الكريم اسلوب الايهام لتحقيق التاثير المقصود في الوجدان .

ومن ذلك قوله تعالى في الحديث عن شجرة الزقوم : « انها شجره تخرج في اصل الجحيم طلعها كأنه رؤوس الشياطين » . وفي هذا التشبيه اطلاق لخيال السامع وراء شناعة الصوره التي يمكن ان تكون راسا لشيطان ، والناس لم يروا الشيطان ماثلا للعيان ، وانما تركز في طباعهم ان صورة الشيطان قبيحة شنيعة ، تبلغ ابعد الحدود في ذلك ، فاذا قرن طلع الزقوم الى رأس الشيطان تغلغل الخيال وراء صور قبيحة لكل من طرفي التشبيه وبذلك يتحقق التأثير المقصود من الزجر والتخويف . يقول الجاحظ :

ليس ان الناس راوا شيطانا قط على صوره ، ولكن لما كان الله تعالى جعل في طباع كل الامم استقباح جميع صور الشياطين واستسماجها وكراهيتها ، وقد اجرى على السنة جميعهم ضرب المثل في ذلك ـ رجع بالايحاش والتنفير والاضافة والتقريع الى ما قد جعله الله في طباع الاولين والآخرين ، وعند جميع الامم على خلاف طبائع جميع الامم وهذا التأويل اشبه من قول من زعم من المفسرين ان رؤوس الشياطين نبات ينبت باليمن » (٢) .

ومن كلام الجاحظ يستبين ان اتخاذ الشيطان مثلا وهو لم ير من احد ـ سر الجمال في التعبير فاذا قد تأصل في طبائعنا قبح الشيطان فليكن لخيالنا الحرية ان ينسج خيوط هذا القبح كما يشاء . ويستقيم هذا الفهم معطريقة القرآن البيانية التي تبلغ التأثير والنفاذ الى القلوب بروعة البيان .

ومن امثلة الايهام في اسلوب القرآن قوله تعالى في وصف سدرة المنتهى :

« ففشاها ما غشى (٣) » وليست موسيقى الازدواج هنا هي التي حددت التعبير بهذه الصياغة فالايهام هنا ضروري لسببين : أن الوصف التفصيلي لا يحيط بحقيقة الموصوف وثانيهما ان الطريق الطبيعي للتعبير المؤثر ان يطلق مجال التخيل فسيحا للسامع فيبلغ من ذلك ما يريد. والنفس الانسانية مشوقة الى هذا الاغماض او الابهام ، لانه يتناسب مع غريزة التطلع والتشوق الى المجهول ، والمشاركة في كشف السر عن هذا المخبوء ، وفي اسلوب الابهام يسرح الخيال وراء اشواق النفس المتطلعة الى المجهول ثم يستقر الى الحقيقة فيعتنقها سعيدا ، وليست المبالغة التي يصطنعها الشعراء من هذا الطراز . اطلق خيالك وراء صورة المتنبي الماحلة في هذا البيت :

ما كنت احسب قبل موتك ان ارى   رضوى على عنق الرجال تسير

نحن نفهم ان يشبه الرجال بالجبال رزانة فكيف يسوغ خيالنا أن يرى جبلا محمولا على اعناق الناس ؟! اراد الشاعر ان يرتقي بالفكرة على جناح هذا الخيال الجامح فانحط بها ولم يبلغ من غايته مطلبا ، ولنتصور ان ممدوح المتنبي قد بلغ من الرزانة والتثبت في حساب الامور الحد الذي لا مطمع فيه لسواه ، ولكنا لا نطيق الاذعان للفكرة بهذا الخيال الغريب ، ودعنا نراجع هذا الخيال في هدوء : جبل محمول على اعناق الرجال يسيرون به ، اذا كان الشاعر يعني من وراء هذه الصوره : ان الرزانة والوزانة قد حملت على اعناق الرجال فقد فهمنا ما يعني الشاعر ، ولكن ليس ذلك نهاية المشكلة ، فقد بقي في مخيلتنا هذه الصورة الغريبة ، وستبقى غريبة حتى نجد توافقا ونسبا بين الفكرة التي عناها الشاعر وبين الصورة الغريبة التي آلفت لتمثيل الفكرة ولن نجد هذا التوافق اذ لا صلة بين الصورة الملفقة وبين ما ترمز اليه من فكرة ، فليت شعري ما الذي حدا بالشاعر الى هذا التصوير الغريب ؟!

الواضح انه شيء آخر غير الصدق الفني وهكذا تجني الاحالة على البيان ! شتان ما بين اسلوب الايهام في جماله وتاثيره وبين اسلوب الاحالة في خداعه وتزويره ، واذا بدا للنظر العابر التباس ما بين الاسلوبين فقليل من التامل يكشف الفرق الواضح بين طريقتين في التعبير . فالايهام اسلوب الاحساس الصادق لا يفجؤك بلمحة تزوير ، ولا يدخل الى النفس بتلفيق الصور المصنوعة وانت من هذا الاسلوب في افواف موشاة من رونق الخيال البديع ولا يضيلك هذا الاسلوب عن الحقيقة المقصودة بالتعبير ، ولا عن النفس الشاعرة في اصدق خلجاتها الشعورية .

ولست في حاجة الى ان ازيد الاحالة بيانا باكثر مما اقول على هدى المثل السابق انها صنيعة الذهن وتزوير المشاعر ، مهارة لفظية لا تعني بالبيان التأثير بقدر ما تهتم بالصنعة للخداع والتزوير ، ومن اجل ذلك وجدنا في اسلوب القرآن الكريم نماذج الايهام ولم نجد المبالغة او الاحالة اذ لا قصد فيها ولا تقدير .

الفيوم   **محمود محمد سليمان**

---

(١) الحب : الحبيب . (٢) الحيوان ج ٦ ص ٢١٢ . (٣) سورة النجم .

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com